مدرسة فرانكفورت والمنهج النقدي

تقديم

إن مساءلة الفكر النقدي انطلاقا من استحضار مختلف تطوراته النظرية في فضاء التفكير الفلسفي يكشف عن وجود تلوينات مختلفة لمناهج النقد الفلسفي من خلال تبلوره في تيارات واتجاهات فلسفية مختلفة بل ومتضاربة أحيانا، كما هو الشأن بالنسبة لمدرسة فرانكفورت النقدية التي تشكل انعطافة مهمة في مسيرة الفكر الأوروبي المعاصر، بحيث كان لهذه المدرسة الآثار الكبير والفاعل في صياغة نظرية نقدية تتعامل مع :السوسيولوجيا، الفلسفة ، والسياسة والثقافة كأبعاد متداخلة ومتشابكة في عملية تكون ودراسة النظريات الاجتماعية والآفاق المعرفية والحضارية التي رافقت التطورات والتحولات التي شهدها المجتمع الأوروبي في ميادين الاقتصاد والسياسة ، وبروز النظام الرأسمالي كعامل حاسم ترك آثاره على الأدبيات الفلسفية والاجتماعية . فأين تأسست مدرسة فرانكفورت؟ ومتى كان هذا التأسيس؟ وما هي الخلفية الفكرية لهذه المدرسة وما هي أسسها الجوهرية؟

نشأة مدرسة فرانكفورت

لقد حصلت مدرسة فرانكفورت على طابعها المؤسسي عبر تأسيس معهد الأبحاث الاجتماعية في عشرينات القرن الماضي، وقد وضعت الحلقة الدراسية الأولى للعمل الماركسي لبنات التفكير في أسباب أزمة الفكر الماركسي وإخفاق ثورة 1918في ألمانيا، وقد جمعت الحلقة الدراسية ثلة من الباحثين من أبرزهم رجل الأعمال فليكس فايل والاقتصادي فريدريك بلوك والمفكر االماركسي جورج لوكاتش... الا أن المشروع لم يتكلل بالنجاح، غير أنه يعتبر بمثابة الانطلاقة التي دفعت بعض المشاركين في الحلقات بالتفكير جديا في تأسيس معهد الأبحاث الاجتماعية.وقد تأسس معهد الأبحاث الاجتماعية رسميا في 3فبراير/شباط ١٩٢٣ في جامعة غوته بمدينة فرانكفورت بألمانيا ، وقد هدف المعهد في البداية احتضان الأبحاث النظرية الاشتراكية التي أقفلت الجامعة الألمانية الأبواب في وجهها، وكان المعهد يظم جملة من المثقفين اللذين لم يتبنوا أطروحات

الاشتراكية، ورفضوا الانضمام الى الحزب الشيوعي الألماني بعد فشل ثورة ١٩١٨ يحدوهم العزم لبلورة فحص عميق لأسس النظرية النقدية.

الأسس الجوهرية لفكر مدرسة فرانكفورت:

لا يمكن فهم النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت إلا بالرجوع إلى الأسس الجوهرية لفكر هذه المدرسة، لكن ما يميز هذه المدرسة عن باقي المدارس الفلسفية والسوسيولوجية الأخرى هو عدم اقتصارها على المرجعية الفلسفية أو السوسيولوجية فقط، فقد تشربت هذه المدرسة من ينابيع جميع العلوم الانسانية ، من الفلسفة " كانط و هيغل..." ومن علم الاجتماع " كارل ماركس وماكس فيبر وهربرت ميد وأغوست كونت..." وعلم النفس " فرويد ، جان بياجي..." والعلوم اللغوية " أوستين وسنكتفي بعرض الاسس الفلسفية والسوسيولوجية .

الأسس الفلسفية.

يبدو أن مدرسة فرانكفورت أو ما يعرف بالنظرية النقدية اتخذت من النقد أساسا لها، والنقد هو تقليد ألماني قديم وقد تبدى جليا خاصة مع ايمانويل كانط ومن بعده هيغل وأتباع هيغل من بعده"الهيغليين الشباب" ليصل هذا التقليد إلى مدرسة فرانكفورت ، بحيث تكونت النظرية النقدية انطلاقا من نقد مفكرين ونصوص فلسفية أخرى لأنه بدون استلهام للماضي ومحاورة الحاضر لا يمكن اتخاذ أية مسافة نقدية كيفما كانت دلالتها ومقاصدهاوهناك اجماع على أن فلسفة هيغل تمثل مرجعية أساسية لفكر مدرسة فرانكفورت وقد تبين ذلك بوضوح في كتابات هربرت ماركيوز وخاصة في كتابه "العقل والثورة ."فإذا كان كانط قد أقام فلسفته النقدية لتمييز المعرفة العلمية الصحيحة عن المعرفة الميتافزيقية التي تؤدي الى وقوع العقل في التناقض، فان هيغل قد جعل من التناقض جوهرا لفلسفته ومنهجه الجدلي .

٢-الأسس السوسيولوجية(الاجتماعية)

أ- التأثير الماركسي: من المعروف أن منظري مدرسة فرانكفورت تأثروا بالماركسية حتى اعتبر البعض أن هذه المدرسة ليست إلا فرعا من فروع الماركسية ، لكن أصحاب النظرية النقدية وان تبنوا الماركسية كمبدأ أو كمنهج فإنهم لم يلتزموا بها كليا ولم

يتشبثوا بمقولاتها المتمركزة حول نقد النظام الاقتصادي والرأسمالي وحول الايدولوجيا بصفة عامة، بل تركزت ماركسيتهم على نقد الاغتراب والأسباب الكامنة وراءه في المجتمعات الصناعية القائمة على الكليانية والمعقولية التقنية والبيروقراطية التي ادعت التقدمية وتباهت بالهيمنة على الطبيعة وعلى الإنسان في العالم الشيوعي والرأسمالي، ولم يكن المصدر الأساسي لهذا النقد هو النظرية النقدية برمتها ولا الارتباط بالطبقة العاملة بقدر ما كان التأثر بماركس الشاب خاصة في كتاباته الأولى وتحديدا في مخطوطات ١٨٤٤، فقد وجدوا في أرائه تأكيدا لاغتراب الانسان وعرفوا أن نقدهم لها لا ينبغي أن يقتصر على الإصلاح الاقتصادي والسياسي وعقلانيتها المزعومة التي تقف حجر عثرة أمام كل حياة إنسانية أصيلة.وهذا ما حاول القيام به كل من أدورنووهوركهايمر في كتابهما المشترك " جدل العقل"، وقد انطلق هابرماس(أحد رواد الجيل الثاني) من فكرة أن الماركسية فكر يحتوي على قدرة نقدية هائلة لكل ما هو عام وشامل، لكن رغم المكانة التي تحضى بها الماركسية في مدرسة فرانكفورت فانها لم تسلم من النقد خاصة في شقها التقليدي والستاليني، اذ اعتبر رواد المدرسة أن الماركسية لم تعد تواكب التغيرات التي تحدث في العالم الرأسمالي ، وأن الرهان على الطبقة العاملة في القيام بالثورات أصبح شبه مستحيل في مجتمع استطاع احتواء هذه الشريحة الواسعة ، ليراهنوا على فئات أخرى من قبيل الطلاب والأقليات العرقية كطليعة استراتيجية للتغيير، وهذا ما تبين جليا في أحداث ١٩٦٨في فرنسا وفي أمريكا حين رفض الطلاب الأمريكيين الحرب على الفيتنام.

ب-التأثير الفيبيري(نسبة لماكس فيبر) : تعتبر كتابات ماكس فيبر حول العقلانية من إحدى المرجعيات الأساسية لمدرسة فرانكفورت، و قد ظهرت بوضوح في كتابات ماركيوز وخاصة كتابه الانسان ذو البعد الواحد ، وخاصة في حديثه عن منطق الهيمنة وهو المفهوم الأساسي الذي أضحى مبدأ جوهريا مميزا لمدرسة فرانكفورت في أوج ازدهارها ويعني أن السيطرة على الطبيعة من خلال العلم والتكنولوجيا تنشئ عنه بالضرورة شكلا جديدا من التسلط على الإنسان ويمكن أن ندرج وجهين رئيسيين للتشابه بين مدرسة فرا نكفورت وكتابات ماكس فيبر:

الوجه الأول: هو أن العقلانية التقنية أو الترشيد قد تم تصورهما كقوى مجردة تشكل مجتمعا يقع خارج نطاق التحكم البشري، حيث أن المنطق الداخلي للنظام الذي خلقه العلم والادارة العقلانية يقوم بهذا العمل على نحو ما من وراء ظهر الأفراد أو الجماعات الاجتماعية المعينة وأنه يقوم بهذا أي العمل أيا كان الشكل الظاهري للمجتمع، أي بصرف انظر عما اذا كان المجتمع رأسماليا أو اشتراكيا شموليا أو ديمقراطيا، وبهذا المعنى يتم إحلال مفهوم " المجتمع الصناعي" محل " المجتمع الرأسمالي.

الوجه الثاني : يمكن العثور على وجه التشابه في النزعة التشاؤمية الكئيبة التي تنشأ من تفسيرهما للمجتمع الصناعي الحديث، فإذا كان فيبر ليبرالي يائس– على حد تعبير توم بوتومور– فان مفكري مدرسة فرانكفورت وخاصة(هربرت ماركيوز) يمكن وصفهم بأنهم " رديكاليون يائسون "– حسب بوتومور– اذ ينظر ماكس فيبر ومعه رواد مدرسة فرانكفورت الى أن التوسع الأكثر أو الأقل قسوة للترشيد والعقلنة يعني أن المجتمع سيصبح عرضة للتسلط من جانب علاقات اجتماعية ذرائعية محضة، وسيصبح " قفصا حديديا" ودولة " للتحجر الآلي" تختنق فيه الإبداعية الفردية والقيم الشخصيةإن تشاؤمية ماركيوزوهوركهايمر فيما يخص مصير الفرد هي من نفس تشاؤمية فيبر، فالعقلانية التقنية، أي العقل الذرائعي هو الذي يسود الحياة الاجتماعية وان بقيت قوى قليلة تعارضها، وهذا ما يخلص إليه ماركيوز في كتابه : "الإنسان ذو البعد الواحد،.وإذا كان الرواد الأوائل لمدرسة فرانكفورت قد اعتمدوا على كتابات ماكس فيبر وكارل ماكس....فان هابرماس كأحد رواد الجيل الثاني من المدرسة لم يكتفي بكتابات ماكس وماركس بل انفتح على كتابات سوسيولوجيين اخرين من قبيل هربرت ميد وايملدوركهايم.

مشروع هربرت ماركوزة النظري:

يتلخص مشروع ماركوز في الإجابة على السؤال التالي: لماذا لم تقم الثورة في البلدان الصناعية المتقدمة؟ وعلى وجه التحديد في البلدان التي افترضت النظرية النقدية الكبرى(الماركسيةأنها ستكون رائدة أقطار العالم اجمع إلى الاشتراكية ؟، بل لماذا باتت شبه مستحيلة في عالم يمتلك منذ أكثر من قرن القوة الكلاسيكية للثورة، أي البروليتاريا الصناعية ؟.

لقد كان أول من حاول الإجابة على هذا السؤال هو لينين، الذي كشف عن تكون قشرة أرستقراطية على سطح الطبقة العاملة، قشرة اشترتها الرأسمالية الاحتكارية بفضل الأرباح الطائلة المجتناة من المستعمرات، واستخدمتها كي تعيق وعي البروليتاريا الطبقي، حيث اعتبر لينين هذه الظاهرة الانتهازية بأنها عارضة ومؤقتة في حياة الطبقة العاملة الأوربية ونضالها، وان تطور الطليعة الثورية كفيل بالحفاظ على نقاء الوعي البروليتاري الطبقي الثوري، لكن التاريخ اثبت أن ما وصفه لينين على انه مؤقت قد أصبح ثابتا ودائما، وان القشرة المشتراة أصبحت نواة البنية البروليتارية، وعليه فانه يمكن القول أن أحدا لم يسبق ماركوز في الإجابة على هذا السؤال بهذه الصورة الشاملة، كما يوضحه مشروعه النظري في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد، حيث ينطلق ماركوز في تحليله للمجتمع من أسس ماركسية بنيوية، وفي نفس الوقت يخالفها في كثير من الأحيان، وذلك لعدم جدوى كثير من مفاهيمها ومقولاتها كأدوات لدراسة المجتمع الصناعي المعاصر، كون هذا المجتمع قد أفرغها من محتواها، نتيجة الدمج الساحق للمجتمع لكل البنى وتداخلها الكبير فيه.وفي كتابه (الانسان ذو البعد الواحد) يطرح مجموعة من القضايا سنحاول تلخيص اهمها :-

١- المجتمع الصناعي المتقدم:

ينطلق ماركوز من الطاقة الهائلة التي يملكها المجتمع المعاصر، مجتمع التكنولوجيا والصناعة المتقدمة، وما تحقق له هذه الطاقة من سيطرة وهيمنة على الفرد تتجاوز كل أشكال السيطرة التي مارسها المجتمع على أفراده في الماضي، والتي كانت على مر العصور تتم بشكل لا عقلاني، الأمر الذي اتاح للإنسان القدرة على الاحتجاج والمطالبة بالتغيير، أما ألان فان السيطرة الاجتماعية في عصر التقدم التكنولوجي، تتلبس طابعا عقلانيا، حيث تكمن عقلانية هذا المجتمع في القدرة التي يمتلكها بفضل التطور التقني على استباق كل مطالبة بالتغيير الاجتماعي وعلى تحقيق هذا التغيير تلقائيا، بحيث يصبح المنهج النقدي هو ذاته لا عقلانيا حين يطالب بتغيير مجتمع يثبت القدرة الدائمة على تنمية الإنتاجية ويوفر لأعضائه حياة الرغد والرفاه. المجتمع ذي البعد الواحد: غير أن ماركوز يرجع ويقول أن هذا هو ظاهر الأمر في المجتمع الصناعي المتقدم، أما الواقع فهو أن هذا المجتمع لا عقلاني برمته، حيث أن تطور الإنتاجية لا يؤدي لتطور الحاجات والمواهب الإنسانية تطورا حرا، بل يقوم بقمعها كشرط لتطوره ونمو

إنتاجيته، ذلك إن جهاز الإنتاج في هذا المجتمع "يميل إلى أن يكون كليا، أي يمارس تأثيره على كل مستويات الحياة المادية والفكرية، وتحديد الغايات والحاجات الفردية، إضافة إلى النشاطات والمواقف الاجتماعية، أي انه يسير باتجاه تحقيق التلاحم الاجتماعي الداخلي واستبعاد كل أشكال التناقض والتجاوز، وبذا يكون مجتمعا أحادي البعد، يحيل الفرد إلى ذات المجتمع نفسه ليكون هو الأخر أحادي البعد، بعد أن يجرد أي محاولة لمناوأته ومعارضته بل نفيهوهدمه .

٢- **التكنولوجيا:**هي علم تحويل الأشياء إلى أدوات مروضة لاستغلالها لأغراض اجتماعية وحضارية، أنها فن غزو الطبيعة والتغلب علي مقاومتها الخرساء، من هنا تلعب دورا تقدميا على حد قول ماركوز، أما في المجتمع الأحادي البعد فإنها كما يردف ماركوز قد أصبحت الشكل العالمي للإنتاج المادي، وهي القوة الكلية المحددة لحياة العصر وثقافته، في ظل مجتمع طبقي قمعي اضطهادي، فان منطقها وهو منطق سيطرة الإنسان على الطبيعة، يصبح المنطق المحدد للعلاقات الاجتماعية أيضا، فبدل أن تكون قوة تحررية أصبحت عقبة أما تحرر الإنسان بتحويلها البشر إلى أدوات مسيطر عليها، فتكون عقلانية اللاعقلانية في التكنولوجيا أنها لا تجعل تحرر الإنسان غايتها الأولى، لان الواقع التكنولوجي الراهن هو واقع استعباد الإنسان وتشيؤه وتحوله إلى أداة لا واقع تحرره.

فالمجتمع التكنولوجي نظام سيطرة يعمل على مستوى تصورات التقنيات وإنشاءاتها، وبذا يكون المجتمع الصناعي بوصفه عالما تكنولوجيا عالما سياسيا، فعن طريق التكنولوجيا تلتغم الثقافة والسياسة والاقتصاد في نظام كلي يفترس أو ينبذ كل الاختيارات والحلول البديلة، حيث لهذا النظام إنتاجه وطاقته المتعاظمتان اللتان تقودان المجتمع إلى الاستقرار وتحبسان التقدم التقني في مخطط السيطرة، وعليه فان ماركوز يعتبر أن التكنولوجيا سياسة قبل أن تكون أي شيء آخر، لان منطقها هو منطق السيطرة والهيمنة، ولأنها تخدم سياسة القوى الاجتماعية المسيطرة في الوقت الراهن.

٣-الإنسان ذو البعد الواحد:

يقول ماركوز أن الانسان ذو البعد الواحد هو ذاك الذي استغنى عن الحرية بوهم الحرية، انه ذلك الذي يتوهم انه حر لأنه يختار بين تشكيلة كبيرة من البضائع والخدمات التي يكفلها المجتمع

لتلبية حاجاته، انه كالعبد الذي يوهب الحرية في اختيار سيده(فهل هو حر؟)، ولذا يقول ماركوز أن الحرية المنظمة من قبل مجموع اضطهادي هي أداة قوية للسيطرة، حيث يفرغ هذا الانسان من أي بعد نقدي ليعارض أو يطالب بالتغيير، ولا يبقى فيه إلا على البعد الايجابي، الذي يقبل المجتمع والواقع كما هو بل ويرضى به بسعادة، معتبرا أي موقف غير هذا موقفا غير منطقي ولا عقلاني، حيث يسخر المجتمع أحادي البعد كل ما يملك من طاقات هائلة (تكنولوجية، إعلامية، سياسية واقتصادية) لتحقيق الهيمنة على الإنسان بتقليص مجاله الداخلي وجعله أحادي البعد.

٤-الرقابة الداخلية وتزييف الوعي الفردي:

يقول ماركوز أن الإنسان يستطيع تمييز تسلسل الرقابات في المجتمع المسيطر غير الحر، في حين انه يعجز عن ذلك أمام المجتمع الأحادي البعد، كون هذا المجتمع عمل على تزييف الوعي الفردي باستبدال الرقابة الخارجية المفروضة بنوع من الرقابة الداخلية المستبطنة(والتي أثبتت أنها ناجحة وفعالة)، والاستبطان هنا يعني انتقال ألانا من طريقها الخارجي إلى الداخلي، إنها عملية توحد الفرد بالمجتمع بشكل آلي(كما هو موجود في المجتمعات البدائية)، حيث بات الفرد الذي يأبى الانصياع والامتثال للمجتمع القائم، يعتبر عاجزا بل ومريضا نفسيا بنظر نفسه بالدرجة الأولى قبل المجتمع.

٥-الدولة والسياسة: يعتبر ماركوز إن عالم الحضارة الصناعية المتقدمة عالما استباديا توتاليتاريا(كليا)، له القدرة على واد أي محاولة لمعارضته بل وعلى دمج القوى الاجتماعية ولاستنفار وتعبئة جميع طاقات الانسان(الجسدية والروحية، القوى الاجتماعية) لحمايته والذود عنه، وهنا يأتي دور السياسة، حيث السلطة السياسية لها مطلق السلطة على الصيرورة الميكانيكية وعلى التنظيم التقني، ويقول ماركوز أن الأنظمة الأكثر ديكتاتورية في التاريخ فشلت في النهاية في إلغاء البعد النافي لها، في حين نجحت الأنظمة الديمقراطية المتقدمة صناعيا في إلغاء ذلك البعد، ويلاحظ هذا من خلال توجه تلك الأنظمة إلى نظام الحزبين، الذين يمثلان قطبي تعارض المجتمع، وهو تعارض وهمي لامتصاص المعارضة الحقيقية، حيث تنعدم القدرة على التمييز بين برامج الحزبين السياسية الداخلية والخارجية، وعلى سبيل المثال يمكن ملاحظة ذلك في نظام الحزبين في(بريطانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية)، ويأتي ذلك لقطع الطريق على القوى الاجتماعية التي يمكن أن تكون عامل التغيير في المجتمع، ومن هنا عجزت الأحزاب

الثورية بل وانزلقت نحو الانتهازية والإصلاحية والاندماج المتعاظم بالنظام القائم بدل أن تعمل على التغيير، ويضرب ماركوز مثالا على ذلك بوضع الحزبيين الشيوعيين في ايطاليا وفرنسا.

وتحوز الدولة(السلطة السياسية) على مكونيين أساسيين لأبطال أي مفعول للمعارضة، بكونها دولة رفاه، من اللاعقلانية المطالبة بتغييرها، مع أنها في الحقيقة دولة تبذير تعمل دوما على خلق حاجات مصطنعة للناس ومن ثم تلبيها، أما المكون الثاني فهو أنها دولة حرب دائمة، تستنفر كل القوى لمواجهة الخطر الدائم والمهدد لها(كالحرب النووية أو الغزو الخارجي وخطر الشيوعية)، حيث تعمل دوما على التذكير بذلك الخطر لكبح ودمج القوى التي لم يستطع الجهاز قمعها ودمجها، وبذا يكون منطق السياسة منطق الهيمنة والسيطرة.

٦- **الثقافة:** وكما السياسة تلعب الثقافة دورا كبيرا في تصفية العناصر المعارضة وتزويد الفرد بضمير مرتاح وسعيد، وحيث أن الثقافة تعريفا ثنائية البعد ولا قوام لها إذا لم تميز بين الواقع وما كان يمكن أن يكونه هذا الواقع، يقوم المجتمع الأحادي البعد بواسطة وسائل الاتصال الجماهيري وطاقتها الهائلة على دمج قيم الواقع الثقافي بالواقع الاجتماعي وإعادة توزيعهما على نطاق واسع تجاري، بحيث تصير الثقافة مجرد بضاعة، تصبح فيه الموسيقى تجارية أو قابلة للتتجير وينسحب هذا على الأدب والفن اللذين كانا دوما بعدا متعاليا والرافض الأكبر للواقع، حيث امتصهما عالم الأعمال ليخرجهما ببعد واحد وبدون البعد الرافض لما هو موجود، بل إن الغريزة الجنسية فقدت هي الأخرى تساميها لتصبح مجرد نعرة بحاجة إلى تلبية على نحو سريع ومباشر مئة بالمئة، فمع انه يتاح مجال واسع في المجتمع التكنولوجي لتلبية الغريزة الجنسية إلا إن مبدأ اللذة يواجه تقلصا وانكماشا، ليصبح الجنس هو الأخر ذو بعد واحد حيواني، هذا وينسحب ما سبق على اللغة نفسها بجعلها لغة ذات بعد واحد تخلو من المفردات والأفكار والمفاهيم النقدية والمتعالية، حيث يجعل محترفي السياسة وصناع الرأي العام(صحافة وإذاعة وتلفاز) اللغة عارية من التوتر والتناقض والتطور والصيرورة، لتكون لغة عاملية وسلوكية بلا تاريخ أو أبعاد لغة مقفلة ومنغلقة، يساهم السوسيولوجيين الأمريكان مثلا بجعلها كذلك بتبنيهم للمنطق التجريبي، فحين يقولون أن فردا ما ديمقراطي يعنون انه ديمقراطي بالفعل، وليس انه يجب أن يكون ديمقراطيا، من هنا

يدحض ماركوز الادعاء الأسطوري كما سماه بان البناء الفكري والفلسفي للمجتمع الأحادي البعد قائما على ما يسمى حياد التكنولوجيا، كونه وسم العصر بمنطق السيطرة والرقابة المستبطنة من الداخل.

وعليه فان ماركوز يرى انه لا بد من انقلاب سياسي لتصبح التكنولوجيا محررة من القوى الغاشمة ولتتبنى مشروع الغاية الكبرى وهي تحرر الانسان، غير أن ماركوز يصل إلى نتيجة عدم وجود عامل التغيير(الطبقة العاملة) وينتهي إلى نتيجة أن الطريق مسدود ألان في وجه التغيير، وهنا يخرج ماركوز عن الأسس الماركسية الكلاسيكية، فيتهم بأنه تحريفي وذاتي بل وخارج المعسكر الإيديولوجي للطبقة العاملة، ناهيك عن تحدثه عن أن المجتمعات الصناعية المتقدمة هي المجتمعات ذات البعد الواحد، ولم يقل الدول الرأسمالية، ليشمل المنظومة الاشتراكية في تحليله .